ادخل إلى العمق

بكاء المسيح

«بَكَى يَسُوعُ» (يو ١١: ٣٥)

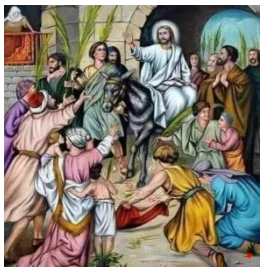

مدخل:

وردت عبارة: «بَكَى يَسُوعُ» مرتين فقط في البشائر الأربع، علمًا بأنها من أقصر الآيات الواردة فيها: أولهما، أمام قبر لعازر الذي أقامه الربُّ من الموت بعد دفنه بأربعة أيام؛ والثانية، عند دخوله إلى أورشليم في الأسبوع الأخير من حياته بالجسد على الأرض.

لكن ما الذي يجعل يسوع يبكي؟ ولماذا كلُّ هذا الحزن والاكتئاب الذي يدفع ربَّ الكون وخالق الكلِّ لكي يذرف الدموع (جسديًّا) على إنسانٍ، أو على أمرٍ يخصُّ خليقته التي سقطت، مهما كان هذا الأمر؟ حقًّا أنه أمرٌ عجيبٌ ومُحيِّر! ولكنه أيضًا أمرٌ جدير بالتأمُّل لإدراك المعاني السامية فيه، وأَخْذ العِبَر منه.

كان سرُّ الحبِّ المكنون للإنسان في قلب الآب المُحبِّ، قد عبَّر عنه الربُّ يسوع بوضوحٍ حينما قال: «هكَذَا **أَحَبَّ اللهُ الْعَالَمَ** حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ» (يو ٣: ١٦)، وأيضًا ما كتبه إرميا النبي بالروح: «**وَمَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُكِ،** مِنْ أَجْلِ ذلِكَ أَدَمْتُ لَكِ الرَّحْمَةَ» (إر ٣١: ٣)، كذلك ما ورد في سِفْر الأمثال: «**وَلَذَّاتِي مَعَ بَنِي آدَمَ**» (أم ٨: ٣١). فجميع هذه الإعلانات تشهد لنا أنَّ هذا الحب هو الذي دفع الآب لكي يبذل ابنه الوحيد (كلمته المُتجسِّد) من أجل خلاصنا، ولكي يردَّنا إلى رُتبتِنا الأولى، بتقدمته لذاته ذبيحة وكفَّارة عن خطايانا على الصليب، وذلك من أجل السرور الموضوع أمامه، أَلا وهو الحبُّ الإلهي المجَّاني المذخَّر لجنسنا البشريِّ منذ تأسيس العالم، والمحفوظ لنا على الدوام كقول الربِّ يسوع نفسه: «إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ **إِلَى الْمُنْتَهَى**» (يو ١٣: ١).

مِمَّا سبق، يمكننا أن نُدرِك كم كان قاسيًا على الربِّ يسوع، وسببًا في حزنه الشديد ودافعًا لبُكائه، عندما يرى الإنسان محبوبه الغالي مُكبَّلًا بقيود الشيطان، وأسيرًا تحت

سلطانه، ومُعرَّضًا للموت الأبديِّ، سواء كان هذا بسبب غواية إبليس أم بسبب تغافُله وعدم توبته وانغماسه في الخطيَّة والشرِّ لفساد طبيعته.

دموع يسوع من أجلنا:

حينما وقف يسوع أمام قبر لعازر، نظر إلى الجموع الوقفين أمامه، وأمام المتألِّمين والباكين العاجزين عن فعل أيِّ شيء أمام سلطان الموت، الذي هو أجرة الخطيَّة، وتراءى أمام السيِّد كلَّ شريط الحياة الإنسانية البائسة والمُنهزمة أمام هذا السلطان، وكيف استطاع إبليس أن يُدمِّر حياة الإنسان وسعادته، بإسقاطه من نعمة الحياة مع الله، ومن ميراث الملكوت والحياة الأبديَّة، ثمَّ إنَّ الربَّ نظر إلى ضعف الإنسان ومذَلَّته، ورُزوحِه تحت حُكْم الموت بعدما سقط، وكيف سادت الخطيَّة على جسده المائت؛ حينئذٍ انزعج يسوع بروحه واضطرب، **وبكى لأجل هذا الحال البائس** والمصير المُظلِم الذي آلت إليه خليقته المحبوبة. **وبكى أيضًا حزنًا وألمًا على الإنسان،** وعلى الخطيَّة التي سبَّبت له حُكْم الموت، وعلى عدم قدرة الإنسان على مواجهة هذا الحُكْم. وما أقساه من حُكْمٍ، ومدعاةٍ لحزنٍ وألمٍ واكتئابٍ وبكاءٍ ونحيب! لأجل ذلك اضطربت روح الربِّ وانتفضت لمعونة الإنسان الضعيف، لكي يرفع عنه هذا النِّير ويعتقه من حُكْم الموت، وينقض سلطان إبليس وأعماله، بأن يحمل في جسده على الخشبة كلَّ أثقال خطايانا، ويُميت الموت بموته بالجسد عنَّا، حتى يُحوِّل حزننا إلى فرح، من قِبَل موته وقيامته المجيدة من أجلنا، جاعلًا من إقامته لعبده لعازر عربونًا ومثالًا لِمَا هو مُزمع أن يُكمِّله لنا من بهجةٍ، بشركتنا في موته وقيامته بعد أيامٍ قليلة.

بُكاء الرب على أورشليم:

أمَّا **بكاء الربِّ على أورشليم،** كما ورد على لسان لوقا الرسول: «وَفِيمَا هُوَ يَقْتَرِبُ نَظَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ **وَبَكَى عَلَيْهَا**» (لو ١٩: ٤١)، فكان من أجل حزنه على مقدار العَمَى الروحي وقساوة القلب اللذين أصابا أبناء هذه المدينة، إذ لم يعرفوا زمان افتقادهم. وبدلًا من أن يهبُّوا مُسرعين لقبول مُخلِّصهم - ليس بسعف النخيل والهتافات المدوِّية فقط - بل بروح التوبة والفرح الروحي ببهجة الخلاص المُزمع أن يصير لهم، وبدلًا من أن يُملِّكونه على قلوبهم وحياتهم؛ فقد هتفوا له كمُخلِّصٍ أرضي من أعدائهم، مُتغافلين عن أَمْر خلاصهم الأبدي. فلمَّا خابت ظنونهم انقلبوا عليه بعد أيامٍ وهتفوا: «اصْلِبْهُ. اصْلِبْهُ». كلُّ هذا قد

عَلِمه يسوع بروحه، ممَّا سبَّب له حزنًا ومرارةً شديدين بسبب هذه الغفلة الروحيَّة؛ **فبكى على المدينة** وأولادها، ثمَّ بعد أيامٍ نراه يطلب من بنات أورشليم النائحات عليه - وهو حاملٌ صليبه - أن لا يبكينَ عليه بل على أنفسهنَّ وعلى أولادهنَّ، الذين لم يعرفوا زمان افتقادهم، ولا ما هو لخلاصهم.

ولا يغيب عن ذهننا أنَّ في كلِّ المرات التي بكي فيها يسوع، فقد بكى بصفته "**الابن المتجسِّد**" الذي أَخَذَ بشريتنا واتَّحد بها، واشترك معنا في اللحم والدم. فهو برغم كونه إلهًا كاملًا، فهو أيضًا قد عاش بيننا كإنسانٍ كاملٍ، واشترك معنا في ظروف حياتنا وآلامنا وأفراحنا، في عُرْس قانا الجليل كما في موت لعازر، حسب قول بولس الرسول: «فَرَحًا مَعَ الْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ الْبَاكِينَ» (رو ١٢: ١٥)، وحياته كلها على الأرض قد أدركها وعاينها الجميع، وهو ما يؤكِّد حقيقة تجسُّده الطاهر ويشهد به تلاميذه بقولهم: «الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا» (١يو ١: ١).

هل يطلب الربُّ يسوع منَّا أن نفرح أم نحزن ونبكي؟

إنَّ بشارة الإنجيل لنا هي **بشارة الفرح**، مثلما يفيد المعنى المباشر للكلمة "إيفانجيليون"، وهذه الدعوة للفرح يعضدها كلمات الرب نفسه، الذي قال لتلاميذه: «بَلِ افْرَحُوا بِالْحَرِيِّ أَنَّ أَسْمَاءَكُمْ كُتِبَتْ فِي السَّمَوَاتِ» (لو ١٠: ٢٠)، وأيضًا يدعونا أن نفرح حتى مقابل ظلمنا وتجاوز الناس واضطهادهم لنا، فيوصينا الربُّ يسوع قائلًا: «اِفْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَوَاتِ» (مت ٥: ١٢). وبولس الرسول يؤكِّد لنا ضرورة الفرح حتى في خِضَمِّ الآلام والضيقات، حيث يكتب بالروح: «الَّذِي الآنَ أَفْرَحُ فِي آلاَمِي لأَجْلِكُمْ» (كو ١: ٢٤)، وأيضًا دعوته للفرح قائلًا: «اِفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا» (في ٤: ٤). وتتعدَّد الدعوة إلى الفرح في مواضع كثيرة من الكتاب المقدَّس، مثل صلاة السيدة العذراء: «تَبْتَهِجُ رُوحِي بِاللهِ مُخَلِّصِي» (لو ١: ٤٧)، وقول بولس الرسول: «فَرِحِينَ فِي الرَّجَاءِ» (رو ١٢: ١٢)، ويُرنِّم داود النبي قائلًا: «فَرِّحْ نَفْسَ عَبْدِكَ» (مز ٨٦: ٤)، ويخاطبنا الروح في سِفْر طوبيا بالقول: «لِيَكُنْ لَكَ فَرَحٌ دَائِمٌ» (طوبيا ٥: ١١). فإن كان الأمر هكذا، والربُّ قد جاء ليهبنا روح النعمة والفرح؛ فلماذا، إذن، نراه يُطوِّب الحزانى والباكين؟ أيُّ حزنٍ هو المطلوب أن نحزنه، وأيُّ بكاءٍ ينبغي أن نقتنيه ولا يتعارض مع بشارة الفرح التي

نلناها؟ وكيف يتوافق الجمع بين الفرح والحزن في حياتنا؟

قال الربُّ يسوع وهو يُعلّم الجموع: «طُوبَى لِلْحَزَانَى، لأَنَّهُمْ يَتَعَزَّوْنَ» (مت ٥: ٤)، وقال أيضًا: «طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الْبَاكُونَ» (لو ٦: ٢١). وقيل عن بطرس الرسول أنه بكى بكاءً مُرًّا: (انظر: مر ١٤: ٧٢؛ مت ٢٦: ٧٥؛ لو ٢٢: ٦٢)، وداود النبي يُرنِّم قائلًا: «أَبْكَيْتُ بِصَوْمٍ نَفْسِي» (مز ٦٩: ١٠). والحقيقة أنَّ هناك نوعين من الحزن علينا أن نُميِّز بينهما، إذ أنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين الاثنين: فالنوع الأول - وهو الحزن المطلوب اقتناؤه - هو حزنٌ يتحوَّل إلى فرحٍ؛ أمَّا الحزن الثاني، فيقود إلى اليأس وانقطاع الرجاء ويؤول بالإنسان إلى الموت. ويوضِّح لنا القديس بولس الرسول سِمَات النوع الأول من الحزن المُطوَّب والمطلوب، فيقول بالروح: «لأَنَّ **الْحُزْنَ الَّذِي بِحَسَبِ مَشِيئَةِ اللهِ** يُنْشِئُ تَوْبَةً لِخَلَاصٍ بِلَا نَدَامَةٍ، وَأَمَّا حُزْنُ الْعَالَمِ فَيُنْشِئُ مَوْتًا» (٢كو ٧: ١٠). فمثل هذا الحزن الذي بحسب مشيئة الله، يتمثَّل في الحزن على خطايانا وتقصيرنا، ويسكب الإنسان فيه نفسه وقلبه، ويذرف دموعه بتوبةٍ صادقة وندمٍ أمام الله، وإرادة قوية في العودة والرجوع إلى أحضانه وترك أدناس حياته السالفة؛ فيُشرق عليه نور الفرح ببشارة الغفران، ويمتلئ قلبه فرحًا وسلامًا. ومثل هذا الحزن المقدَّس عادةً ما يقترن بالصوم والبكاء والنوح (انظر: يوئيل ٢: ١٢). وهو ما ندعوه حزن التوبة المقدَّس والمُفرح، مثل بكاء بطرس الرسول ونَدَمه على إنكاره لسيِّده، وعودته ثانيةً وقبول الربِّ له، حسب وعده السابق له: «وَأَنْتَ مَتَى رَجَعْتَ ثَبِّتْ إِخْوَتَكَ» (لو ٢٢: ٣٢). والقديس بولس الرسول يحُضُّنا على مثل هذا الحزن والدموع، إذ يكتب بالروح إلى أهل كورنثوس: «الآنَ أَنَا أَفْرَحُ، لَا لأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ، بَلْ لأَنَّكُمْ حَزِنْتُمْ لِلتَّوْبَةِ» (٢كو ٧: ٩).

كذلك يوجد أيضًا صُوَرٌ أخرى للحزن المقدَّس الذي بحسب مشيئة الله، وهو الحزن على إخوتنا البعيدين، والذين نتألَّم من أجلهم ومن أجل عودتهم، ونُصلِّي بدموع ليرجعوا للربِّ، كقول إرميا النبي: «أَبْكِي نَهَارًا وَلَيْلًا قَتْلَى بِنْتِ شَعْبِي» (إر ٩: ١)، وكذلك بكاء بولس على المُقاومين له ولطريق الربِّ، حيث يقول عنهم: «وَالآنَ أَذْكُرُهُمْ أَيْضًا بَاكِيًا» (في ٣: ١٨). فالحزن والدموع والصلاة من أجل البعيدين والمُقاومين لنا حتى يعودوا ويتوبوا ويرجعوا لأحضان المسيح والكنيسة؛ هو **حزنٌ مقدَّسٌ، ودموع كريمة** أمام الله، مثل دموع أُم القديس أُغسطينوس على ولدها حتى صار قدِّيسًا عظيمًا، فهي أحزانٌ ودموعٌ

ستؤول أخيرًا إلى فرحٍ، كقول الربِّ نفسه: «أَنْتُمْ سَتَحْزَنُونَ، وَلكِنَّ حُزْنَكُمْ يَتَحَوَّلُ إِلَى فَرَحٍ» (يو ١٦: ٢٠). فكلُّ حزنٍ بحسب مشيئة الله سوف يُنشئ فينا قوة توبة بلا ندامة، وإضرامًا لرجاءٍ حيٍّ، يحوِّل فينا هذا الحزن إلى فرح وسلام قلبي يفوق العقول.

أمَّا النوع الثاني من الحزن، وهو الحزن المرفوض والذي يتناقض مع بشارة الفرح المُقدَّمة لنا في الإنجيل؛ فهو **الحزن الذي من العالم**، ذاك الحزن الذي بلا رجاء، والمُتعلِّق بكلِّ أركان هذا الدهر واهتماماته الماديَّة والزمنية الفانية، مهما عظُمت، أو أي خسارة أرضية، لأنَّه بواسطته يضغط الشيطان على الإنسان، ويزرع في قلبه مشاعر الإحباط والألم والحزن، حتى يُفقِده رجاءه في الغفران والرحمة والشبع والفرح بالله، وبالتالي يصل به إلى هاوية اليأس والموت. وليس أدلُّ على ذلك من مثال يهوذا الإسخريوطي، الذي بعدما أدرك خطأه في تسليم سيِّده وبيعه إيَّاه بثلاثين من الفضة، لم يحزن للتوبة - بحسب مشيئة الله - وقام ليبكي نادمًا مترجِّيًا غفران الله ورحمته، كما فعل بطرس الرسول؛ بل ضيَّق عليه الشيطان بأفكار اليأس والقنوط وقَطْع الرجاء في رحمة إلهه، فمضى وشنق نفسه وفَقَدَ حياته الأبدية.

كذلك الشاب الغني، عندما وضعه الربُّ أمام اختبار محبته هو أم محبة المال، وصعب عليه الأمر، **فمضى حزينًا** وخسر أثمن فرصة ليصير تلميذًا للمسيح، بعدما استسلم لحزنه على التكلفة التي سيتحمَّلها لقاء تنازُله عن أمواله. لذلك حَزِنَ من أجل الخسارة الماديَّة، ولم يحزن للتوبة وربْح الحياة الأبدية.

أمَّا أحزان الإنسان الحياتيَّة واليوميَّة، فالربُّ كفيلٌ بأن يمسح لنا الدموع التي تجلبها علينا، وأن يُطيِّب قلوبنا وأنفسنا، ويُحوِّلها لنا إلى مصدر عزاءٍ وفرحٍ، إن نحن ألقيناها تحت أقدام الرب، كما صنع الربُّ مع ابن أرملة نايين حين قال لها: "لا تبكي" (لو ٧: ١٣)، وكما صنع السيِّد مع أُخْتَي لعازر، ومع الرجل والد الصبي المجنون والأخرس والأَصم، ومع كلِّ مَن يترجَّى اسمه القدوس، عالمين أن نفس هذه الآلام تُجرى على إخوتنا الذين في العالم (انظر: ١بط ٥: ٩)، بل مُلقين بأحزاننا عليه، لأنه هو القائل: «فِي كُلِّ ضِيقِهِمْ تَضَايَقَ» (إش ٦٣: ٦). فلا نحزن حزن العالم كالباقين الذين لا رجاء لهم (انظر: ١تس ٤: ١٣)، لأنه هو القادر أن يحمل أحزاننا، ويمسح دموعنا، ويهبنا الفرح المقدَّس والدائم الذي دعانا إليه.